كلمة لا بد منها

للأستاذ علي الطنطاوي

ولقد كنت أود أن أجد من نشرها بدأً — غير أن ما تنشره صحف مصر ومجلاتها في موضوع الأدب الشامي والتعريف بأهله لمن نعرف ومن ننكر من الكتاب أوجب نشرها — وأنا أعرف قولهم (العبرة بما قيل لا بمن قال) ولكن ذلك في الحقائق التي يستقل العقل بتمحيصها ووزنها، والحكم عليها بالصحة أو بالفساد، أما الأخبار الممكنة التي تحتمل الصدق والكذب، كقولنا: إن لفلان أسلوباً بارعاً، وفلان بليغ، وله كذا من الكتب، لمن لم يسمع بفلان هذا ولم يقرأ له، فلا يمكن الحكم عليها بالتصديق أو بالتكذيب، وبالقبول أو بالرد، إلا بعد معرفة حال راويها ومخبرها، ومبلغه من الاطمئنان إلى خبره وحكمه، فإن كان عدلاً ضابطاً، والضبط في الأدب هو التمرس به والذوق فيه وفهمه، والعدالة ألا يميل به حب ولا بغض، وأن يحكم على الرجل بأثره، فلا تمنعه عداوته جحوداً من الثناء عليه، ولا صداقته مسيئاً من نقده.. فإن كان كذلك قبل خبره وإلا رده، وأنا أقول آسفاً إن مجلات مصر لما فتحت صدرها لمن يعرف قراءها بالمجهول من أدب الشاميين، جاءتها مقالات من أشخاص هم أكثرهم وكبير مطلبه أن يرى اسمه منشوراً في هذه المجلات، ومنهم من لم يكد يضع من قبل سواداً في بياض، فنشرت لهم كل الذي جاءها منهم وحكمتهم في رقاب الأدباء، وجعلتهم من أهل الترجيح في الأدب، فكتبوا أشياء لا يفهم منها الجاهل بأدبنا شيئاً، ويضحك منها العارف به أو يشنعوا على صاحبها، ومنها ما يخرج في جملته وتفصيله عن أن يكون دعاية لمن كتبه ولأصحاب الكاتب وأصدقائه، وحشراً لهم بين مشايخ الأدب والمقدمين فيه، ثم كانت الطامة التي لا أقول إنها الكبرى لأني لا أدري ماذا يجيء من بعدها، فنشرت مجلة محترمة مقالة في ذنبها اسم لم نسمع به، خلط فيها صاحبها وخبط، وانتهى به الخلط والخبط أن نحل رياسة الأدب في الشام رجلاً ليس منه في العير ولا النفير، وليس منه في فرس ولا بعير. وأشهد لقد ضحكنا منها في مجالسنا كأشد ضحك ضحكناه

رأسه، فهو إسلام مخوط بالشك، لايصح أن يؤخذ فيه إسلام لم يجد الشك إليه سبيلا، ولم تزعزعه الفتن كما زعزعته.

فلما نظر أبو بكر إلى ذلك كله حكم بعذر خالد فيما فعل، وتجاوز له عما كان في تلك الحرب، ولكنه عنفه على مبادرته بتزويج امرأة مالك قبل أن تمضي مدة استبرائها، ثم قضى لمتمم ابن نويرة بدية أخيه من بيت المال، وحكم له برد السبي.

فخرج خالد حين رضي عنه أبو بكر وعمر لايزال جالساً بالمسجد، فقال له خالد: هَلُمَّ إليَّ يا ابن أم شملة. فعرف عمر أن أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه ودخل بيته.

وقد أصر عمر على رأيه في خالد حتى صارت إليه الخلافة، فكان من أول ما بدأ به أن عزل خالداً من قيادة جيش الشام، وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح، ولا شك أن أبا بكر كان أدق نظراً في هذا من عمر، وقد قال لعمر لما ألح عليه أن يعزله، وقال له إن في سيفه لرهقا: لا يا عمر، لم أكن لأشيم سيفاً سلّه الله على الكافرين.

فرحمك الله يا أبا بكر، لقد عرفت أن مثل خالد من أبطال التاريخ إنما يحيا لأمته، فلا يضيره أن يعزل من قيادة أو نحوها، وإنما يضير ذلك أمته التي تحرم من حسن جهاده، وتتعرض جيوشها للهلاك حين تفقد قائدها المدرب، وبطلها الذي يقودها من نصر إلى نصر، وما الأمة إلا بزعمائها، وما الجيوش إلا بقادتها، فلا يليق أبداً أن نغمط جهادهم بهنة من الهنات، ولا يصح أن ننسى ماضيهم المجيد لزلة من الزلات، فهم بشر مثلنا يصيبون ويخطئون، فيجب أن يعذروا في خطئهم، لأنه لا يقع منهم عن عمد، والعصمة لله وحده.

عبد المتعال الصعيدي

قط . ولكن القراء لم يضحكوا لأنهم لا يعرفون من الأمر إلا أنه (كفّ عدس ...) ، ولأنهم يثقون بأن هذه المجلات لا تقدم لهم إلا حقاً ، ولا تنشر إلا لأديب أريب .

***

وأنا لا أنكر منافع (التشجيع) ولقد كتبت فيه وأثنيت على أهله[1] ، ولكن هذا التشجيع إذا بلغ هذا المبلغ صار أذى لمن يشجع ، وضرراً على الأدب وأهله ، لأن من يشجع على الادعاء والغرور والعدوان يؤذى ولا يبقى فيه مصطلح ، ويصدق أنه صار زبيباً وإن كان فى ذاته حصرماً حامضاً يلذع اللسان ويجرح الحلق ، ويكون عند نفسه أستاذاً جليلاً ، وعلماً مشهوراً وهو عند الناس تلميذ صغير ... ولأن الأدب إذا كثر الأدعياء فيه والواغلون عليه ، وتصدر الجهلة مجالسه وامتهن العلماء الأبيناء هان الأدب وسقط . وهل فى الهوان أهون من أن يكتب (زيد) من الأدباء مائة مقالة ، يبذل فيها الغالى من عمره ومن قوته ، ومن دم قلبه وضياء عينيه ، بعد أن استعد لها بالدرس والتحصيل وسهر الليالى فى مدارسة كتب العلم ومطالعة أسفار الأدب ، وصرم فى ذلك الدهر الأطول فيأتى (عمرو) فيختصر الطريق ، ويقفز من فوق الجدران فلا يقرأ شيئاً ولا يكتبه ، ولكن يكتب مقالة يقول فيها عن نفسه : إن له مائة مقالة أو يسخر صديقاً له ليقول عنه إنه أحسن من (زيد) ذاك ، وأرسخ منه فى الأدب قدماً ، وأضخم منكباً ، وأعلى هامة ، ويصدق ذلك القراء ويستوى عندهم الرجلان . أو هو يسب العاملين بدلاً من أن يعمل ، وينقص أقدار الرجال ليزيد بما ينقص منهم ، ويعلو بما يظن أنه يحمض من منازلهم ...

... خبرونى بالله ان كنتم تعلمون ، كيف يكون التدجيل إن لم يكن هذا تدجيلاً ؟ !

* * *

أما إننى لا أدعو إلى احتكار الأدب وما فى سوق الأدب احتكار ، ولكن أدعو المجلات المصرية المحترمة أن تتريث فى نشر ما يحمله إليها البريد من مقالات النقد والتقريظ والكلام فى الأدب وأهله حتى تعرف الكاتب ، ومبلغ الثقة بخبره وحكمه ، ومكانته فى بلده ، وألا تدع أسماء الكبار من أدباء الأقطار العربية مضغة فى فم كل عب للشهرة ، يشتهى أن يكون كاتباً ولم يعدّ للأمر عدته

وأنا لا ألوم الشباب أن يستمرئوا التدجيل ويستسهلوا طريقه ، ويستصعبوا الجد والدأب ودخول البيوت من أبوابها . فهذا هو شأن الشباب ، وكلنا كان كذلك أو كان قريباً منه ، ولكنا لم نجد مجلات تعيننا عليه ووجدوها ، وها أنذا قد دانيت الأربعين ، وأظن أنى كتبت من الصحائف المنشورة ما يزن أرطالاً ، وإنى والله ما أبعث اليوم بمقالة إلى مجلة إلا مستحيياً منها ألا تكون للنشر صالحة ، وخائف أن تصير لقىً ، أفلا يحق لنا أن نعجب من صفاقة أقوام من هؤلاء الكاتبين وأن نعتب على هذه المجلات المحترمة ، إذ تضع الشيء فى غير موضعه فتجود فى غير مجاد ، وما لكل ناشيء اليوم لا يرضى بأقل من الرسالة والثقافة فلا ينشر فيها غذرمته ... فقد كنا نتمنى جريدة يومية تنشرلنا فما كنا نصل ، ونحن يومئذ أقلّ من أكثرهم اليوم جهلاً !

ولقد كنا سألنا مجلات مصر أن تنشر لأدبائنا وتعرّف بأدبنا وعتبنا عليها أنها لا تفعل ؛ ولكنا لم نرد إلا الأدباء حقاً[1] لا أن تنشر لكل من يسود صحيفة ويضعها فى ظرف ويبعث بها إلى المجلة ... ثم تحملُ ذلك علينا وتنسبه إلينا وتمثل به على أدبنا ، وتقبل حكم صاحبه علينا يرفع منا من يشاء ويخفض من يريد .

والسبيل لا سبيل سواها هى تكليف أحد أدبائنا المعروفين ممن لا يطعن على شخصه وإن خولف فى رأيه البحث فى أدب الشاميين بحثاً علمياً منظماً خالياً من أثر الحب والبغض ، مؤيداً بالدليل مستنداً إلى التحليل فينظم أدوار هذا الأدب وطبقات أهله من جهة السن ، ومن جهة الأسلوب والبلاغة ، إذ رب شاب هو أبلغ بلاغة ، وأصفى ديباجة ، وأعلى أدباً ، من شيخ يحمل أمجاد نصف قرن ، أى أنه يؤرخ أدبنا على نحو ما نؤرخ الأدب القديم الذى تقطعت بيننا وبين أهله أسباب الميل والنفار والحب والكراهية . أما هذا الطريق الذى سارت عليه مجلات مصر إلى الآن فحسبنا مالقينا من وعره ووحشته والتوائه .

القاهرة

علي الطنطاوي

(1) الرسالة العدد (١٠٦) — فى ١٥ تموز سنة ١٩٣٥

(1) ومن هؤلاء السيدة وداد السكاكيني : ونرجو أن تتم هذه الفصول التى بدأتها فى الرسالة ، والصديق الأستاذ صلاح الدين المنجد .